القيادة.. وآليات العمل الإفريقى فى الفترة الناصرية

حلمى شعراوى

مدير مركز البحوث العربية والإفريقية

- ١ -

لا تنشأ أية إدارة جديدة، لمجتمع ما، من فراغ، مهما اتخذت شكلا انقلابيا أو ثوريا. فهى فى جدل عضوى بالتأكيد مع المرحلة الاجتماعية السابقة، تأخذ منها وتسقط. وتنمى، حتى تنطلق إلى آفاقها الجديدة. وقد كان هذا شأن ثورة يوليو الوطنية ١٩٥٢م. ويشكل توجه «يوليو» الإفريقى على وجه الخصوص معظم ملامح «يوليو» الوطنية. بل وتشكل مواقفها فى هذا المجال أكثر توجهاتها «ثورية». ولذا فإن نسق إدارة هذا المجال يتخذ أهمية خاصة فى تقديرى. لأنه مازال حتى الآن هو الذى يشار إليه فى قياس معظم الدلالات عن مدى «التزام مصر» الوطنى أو الثورى تجاه العالم الخارجى، بقدر ما بقى السؤال عن حضورنا أو غيابنا فى الساحة الإفريقية، ولا ينفى هذا حيوية العلاقة وعضويتها أيضا بالنسبة للفضاءات الأخرى (عربية وغيرها).

ولابد أن يقوم نسق إدارة المجال على خيارات معينة تحكمها التحولات السائدة. وقد سادت فى أوائل عقد الخمسينيات صياغات عن «المجال الحيوى» و«الدور الحضارى أو السياسى» كتعبيرات موروثة من تطورات السياسة الدولية بعد الحرب الثانية، مثلما سادت بعد ذلك صياغات «الزعامة» و«الريادة» بين القوى الجديدة التى برزت فى العالم الثالث خاصة.

وإذا ما تجاوزنا هذا التفرد «المثالى» لحالة يوليو، كما يصيغه البعض، فى مجال كان لمصر فيه لفترة طويلة أشكال من التعبير لا تغفلها عين، فإننا يمكننا أن نقول أن منطلقات يوليو الوطنية، كانت تتفاعل مع مقدمات أعقبت الحرب الثانية على وجه الخصوص نتيجة فورة الحركة الوطنية والديمقراطية فى تلك الفترة. ولم تكن «حرب فلسطين»

وحدهـا، هى مصدر هذا التفاعل، كمـا يبدو للبعض أيضا. وإنما كان هناك تهديد التطلع الأمريكـى المبكـر تجاه المنطقة. والذى طرح نفسـه فى محاولة جـر مصر إلى حرب كوريا ورفضت، أو إلحاقها بالبيان الثلاثى للقوى الغربية الكبرى ١٩٥٠م ورفضته كذلك لارتباطه بتحالفات الحرب الباردة فى إطار الأحلاف العسكرية والسياسية التى واجهتها مصر طوال الخمسينيات. ومن ثم صارت دائرة التحرر الوطنى ومواجهة الاستعمار الجديد هى المنطلق الأول لأية صياغة وطنية وقومية فى تلك الفترة.

سـوف لا أعود هنا إلى ما سـبق أن كتبته أو عبرت عنه فى مناسبات تتعلق بالرد على البعض بشأن محاصرة مفهوم يوليو التحررى فى فكرة الدوائر الثلاث وترتيبها وفق أولويات «العربـى» - «الإفريقى» - «الإسـلامى». لأن وقائع تعامل يوليـو مع العالم الخارجى كما أشرت قد حكمتها منذ البداية دائرة التحرر الوطنى العالمية الأوسع من هذا الترتيب عمليا ونظريا، والتى شاءت الظروف - مع تطلع يوليو الأساسى للتخلص من الاستعمار البريطانى المباشر - أن تنطلق فى إطار عقيدة التحرر الوطنى إلى الدائرة الوطنية الإفريقية قبل غيرها. ليـس بمعنـى تراتبية هذا الاتجاه أو ذاك ولكن بمعنى ضرورات الموقف الذى فرض نفسـه لاستكمال عملية التحرر الوطنى الشامل.

وقـد لعبـت الآلية البراجماتية دورهـا فى دفع «يوليو» أكثر من مـرة إلى إعادة ترتيب أوراقهـا إزاء الاعتبارات العملية. بحيث بدا ذلك «خيارا» مرة أو توجها سياسـيا للإدارة الجديدة مرة أخرى. لأن القيادة هنا لم تقم بالتعبير عن نفسـها بخيار أيديولوجى نظرى محـدد. بقدر ما كان خيارهـا الوطنى هو «الأيديولوجية» التـى لا ينقصها التعبير. وهى تواجه عمليات الاستعمار الجديد. وتبلور إمبريالية ما بعد الحرب الثانية.

ولـذا يمكـن القول إن ثورة يوليو لم تتبنى منهج «تصدير الثورة» كما يصور البعض بقدر ما هو تحالف وطنى ضد الاستعمار.

وعندما سـألت محمد فايق فى حوارات مطولة معه - لم تنشـر بعد - عما كان يقرأه جمال عبد الناصر ويتعلمه هو وزملاؤه فى كلية الأركان قبل الثورة أكد ما نشر فى دراسات عدة عن عبد الناصر من إحاطته واهتمامه بدراسـات الشـرق الأوسط والاستراتيجيات التى تصـاغ حولـه. هنا يمكـن المقارنة فى تلك الفترة مع كثافة وضع السـودان الأساسـى فى الصياغة الوطنية عند «الوفد»، كما كانت العلاقة الاشتراكية أساسا عند الشيوعيين، بينما

انخرطت التيارات الإسلامية فى موجة العداء للشيوعية الدولية وانعكس ذلك بالطبع على علاقة الضباط الوطنيين بهذه القوى من جهة وعلى صياغة المفاهيم السياسية – حتى بقدر براجماتيتهـا – عـن العالم الخارجى من جهة أخرى. لتجعل دائـرة التحرر الوطنى هى صاحبة الأولوية وليست صياغة الدوائر الثلاث المعهودة.

ومن هنا تبرز قيمة «العمل الإفريقى»، وموقعه عند قيادة يوليو. بل وتبرز مكانة «مكتب الشـئون الإفريقية» بـين «مكاتب الرئاسـة» المعروفة. وهنا أيضًا يفـرض الواقع براجماتية الحركة، ونوعية الأيديولوجيا الوطنية. فالواقع المباشر المحيط بمصر معبأ بقضية السودان، وأزمة الصومال وإريتريا فى الأمم المتحدة، والعنف الفرنسى فى شمال إفريقيا، والمستوطنون البيض فى أنحاء مختلفة من القارة. فضلا عن وجود الجاليات العربية وآثار التاريخ العربى والإسلامى فى شرق وغرب القارة ولذا أصبحت الخيارات الوطنية البراجماتية تفرض نفسها علـى الموقف. ويذكر مثـلا كيف كانت كتابات حول «الإمبراطوريـة المصرية» فى إفريقيا، أو «مصـر ورسـالتها»، هـى الخلفية المحتملة، وراء تفكير شـباب هـذه المرحلة – جمال عبـد الناصـر وغيره – فى اتجاه إفريقيا، وإن شـغلته هواجس أبعد من ذلك فسـوف تمتد من مشـروعات «هرتزل» فى مطلع القرن العشـرين لمد مياه النيـل إلى العريش، أو الأطماع الصهيونيه فى منطقة حوض النيل نفسـه (أوغندا كمسـتوطنة) أو مدى ضمان اتفاقية مياه النيل ١٩٢٩م لتوفير المياه لمصر. وتأسيس مبدأ العمل مع الإنجليز فى تنظيم وصول هذه المياه من المستعمرات البريطانية (مشروع خزان أوين فى أوغندا وتنفيذه عام ١٩٥٤م/ ١٩٥٥م).

ولـن نتردد هنا فى القول أن ذلك كله كان مرتبطـا بفكر البرجوازية الزراعية فى مصر الذى اقتصر على الرغبة فى حماية مصادر المياه، وهو الفكر نفسـه الذى حكم برامج بعض الأحزاب السياسية المصرية حتى ذلك الوقت ولفترة طويلة بعدها، بل وحكمت آثاره أفكار البرجوازية والطبقة الوسطى فى مصر عن إفريقيا والأمن القومى لمصر لعدة عقود.

– ٢ –

إذا فقـد كان دخـول مصـر عالم التحرر الوطنـى، نقلة إلى عالم جديـد، تجاوز هموم مصـر القطرية مع الاحتلال البريطانى. وحتى محيطها القطرى بشـأن مياه النيل. وبدت ملامح السياسـة الاستعمارية حول الشرق الأوسط تمثل القلق الأساسى عند القائد الجديد،

وخطة التنمية الجديدة المطروحة عليه بحيث باتت مصدر التطلعات الجديدة لمشروع الدولة الوطنية وآليات عملها.

فرضت التطلعات الوطنية الجديدة التحرك على أكثر من جبهة فى وقت واحد تقريبا مع اعتماد أسلوب التفاوض والتلويح بالقوة فى نفس الوقت، بل وأتاحت ظروف موجة التحرر العالمية وسندها الاشتراكى فرصة جديدة لآلية الضغط على مناطق الوجع الاستعمارية، ثم الانتماء للعالم الجديد للتحرر الوطنى ودخوله من أوسع أبوابه فى «باندونج».

أ – كان التفاوض يجرى بشأن جلاء الإنجليز عن مصر، وإمكانيات بقاء وحدة مصر والسودان، لكن كان هناك أيضا مبدأ حق تقرير المصير للشعب السودانى، بل وكان فى الأدراج وفى اللجان الوطنية بمصر دراسات لمبدأ آخر عن حق الشعوب فى ثرواتها (قناة السويس – مشروع السد العالى..). وارتبط التفاوض بالتلويح باستعمال العنف الوطنى المضاد للعنف الاستعمارى من خلال العمل الفدائى فى منطقة قناة السويس. وتكشف دراسات أخرى تفاصيل هذه الآلية، لكن ما يهمنى هنا الإشارة التى سجلتها خلال حواراتى مع محمد فايق عن التلويح بالقوة نفسها ضد الاستعمار البريطانى فى كينيا وأوغندا (دعم ثورة الماوماو.. إذاعة السواحيلية والتجرينية من القاهرة!). وكان لابد من التسليم باستقلال السودان، وتأكيد الوجود المصرى فى الصومال فى نفس الوقت. كما بدأت بريطانيا تقلق على مصالحها فى شرق إفريقيا مثل قلق الولايات المتحدة على قواعدها فى إثيوبيا. ومعنى ذلك أن مبدأ التحرر الوطنى شد قيادة يوليو منذ اللحظات الأولى، وعلى الأرض الإفريقية أساسا؛ وبآلية المواجهة الساخنة. فى الوقت نفسه تصاعد هذا الحس الوطنى ليمتد إلى الجزائر ثم إلى الكونغو، ثم إلى الجنوب العربى، وهذه جميعا مباحث أساسية لاهتمام الباحث العربى والإفريقى على السواء.

ب – انتقل اهتمام الثورة المصرية سريعا إلى إدراك بعد الانتماء إلى عالم التحرر الوطنى الواسع مع انعقاد مؤتمر باندونج الآسيوى الإفريقى– أبريل ١٩٥٥م. ولن ننسى أن هذا المؤتمر كان حكوميا، بل وكانت الغلبة العددية فيه لحكومات محافظة، كما كانت مصر فيه ضمن أربع دول مستقلة فقط من إفريقيا، ومع ذلك فإن صوت التحرر الوطنى بدأ هو فى الغالب بوجود إندونيسيا والهند والصين، وعلو صوت المبادئ الآسيوية للاستقلال والحياد (البانشاتشيلا).. إلخ وهنا حدث ما سمى «اكتشاف آسيا» فى مصر، واكتشاف

الآسيويين لقيادة عبد الناصر الشابة. ومع اكتشاف عبد الناصر نفسه لآسيا، انتبه لقيمة تمثيله لإفريقيا هناك وأهمية مضاعفة وزنها السياسي عبر العمل الإفريقي. لعل ذلك هو الذى جعله يصدر فى يناير ١٩٥٦م مذكرة تخطيطية للسياسة الإفريقية بحيث تكون تحت إشراف مركزى لزكريا محيى الدين عضو مجلس قيادة الثورة مع شخصيات مسئولة أخرى فى ذلك الوقت مثل عبد المنعم القيسونى. وكان محمد فايق يعمل منذ كلفه عبد الناصر من أوائل ١٩٥٣م مع زكريا محيى الدين لبناء المخابرات العامة فى مواجهة إسرائيل أساسا.

ولم يكن العمل الإفريقى فى انتظار هذه الترتيبات الرسمية. لأن أحداث السودان من جهة ومقتل كمال الدين صلاح ممثلها فى لجنة الوصاية الدولية بالصومال عام ١٩٥٤م من جهة أخرى كان قد دفع التحرك الإفريقى لمصر مبكرا. وقد رأينا كيف تأسست برامج الإذاعات الموجهة لإفريقيا مع بدء المفاوضات مع الإنجليز حول السودان (ولم تغب عنها قضايا مياه النيل نفسها) كما جرى تعبئة شباب إفريقيا فى الأزهر. والانتباه لتحركات الأمريكيين عبر إثيوبيا فى السودان فشدت مصر لقضية إريتريا بدورها من وجهة نظر وطنية خلافا للموقف الدبلوماسى بشأنها فى الأمم المتحدة عام ١٩٥١م.

إلى هنا ويبقى فى الثقافة السياسية تساؤل عما إذا كان للبعد الأيديولوجى (فكرة تصدير الثورة) أم الضرورات العملية فى إطار التحرير الوطنى هى التى كانت تحرك الواقع السياسى المصرى تجاه إفريقيا فى بدء انطلاق ثورة يوليو نحو الخارج؟ وعما إذا كان الواقع الثقافى والتربوى والإعلامى يساير هذه الحاجات العملية والأيديولوجية لتلك الفترة؟

— ٣ —

قد يساعد على الإجابة عن التساؤلات السابقة، اكتشاف مصر يوليو لحجم العداوات الكامنة ضدها فى أكثر من موقع فى فترة قليلة بين ١٩٥٤م/ ١٩٥٦م. فالعداء الإسرائيلى وقع عسكريا على الحدود المصرية، والعداء الاستعمارى وقع بمقتل كمال الدين صلاح فى الصومال والعداء الإمبريالى وقع بموقف أمريكا من مصر فى البنك الدولى بل وتسمية القوى التقدمية فى باندونج بما يشبه صفات «الدول المارقة» فى مطلع القرن الواحد والعشرين. لكن ذلك لم يوقف حركة القيادة المصرية عن التحرك فى الاتجاه الإفريقى — مثل غيره — لمواجهة هذه العداوات المتنوعة لتعويق تطلعاتها المستقبلية.

وتعـددت المحطات التـي يجب أن نتوقف عندها فى قياس قوة العمل الإفريقى ومدى انتبـاه القيادة نفسـها له كآلية لمصدر قوتها الدوليـة. ويمكن أن نرصد- بدون تفاصيل عن التحرك نفسه - عدة محطات رئيسية فى هذا الصدد:

- فقد أعقب انعقاد «باندونج» الحكومى فى إندونيسـيا تحرك الهند نفسـها نحو مصر للتعاون فى عقد مؤتمر كبير للشعوب الإفريقية والآسيوية. وفى القاهرة بالتحديد، وجاءت وفـود هنديـة لعبد الناصر (عقب العـدوان الثلاثى ١٩٥٦م) لترتيب عقـد هذا المؤتمر بعد انسـحاب المعتدين ١٩٥٧م. فانعقد مؤتمر تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية فى السادس والعشرين من ديسمبر ١٩٥٧م حتى أول يناير ١٩٥٨م.

- وكانت المحطة الثانية هى بداية اسـتضافة مصـر لمثلى حركات التحرير الإفريقية من بين من حضروا مؤتمر القاهرة. ويلفت النظر هنا بداية المواجهة المباشـرة مع الاستعمار الفرنسـى الذى كانت المعركة المسلحة ضده فى الجزائر، وامتدت إلى جانب حضور تمثيل الثورة الجزائرية فى القاهرة إلى تمثيـل شـعوب المستعمرات الفرنسية (حزب اتحاد شعب الكامـيرون UPC)، وبالمثل كان الأمر بالنسـبة للمسـتعمرات البريطانية خاصة المحيطة بحـوض النيل: الاتحاد الوطنى - (الكانو KANU من كينيا - المؤتمر الوطنى UNC من أوغنـدا) بل وامتـد العمل ضد النظام العنصرى فى جنوبـى إفريقيا (حزب المؤتمر الوطنى الإفريقى ANC وحزب اتحاد شعب زيمبابوى ZAPU) كما امتد إلى منطقة النفوذ الأمريكى المباشرة فى إثيوبيا باستضافة قيادات حركة التحرر الإريترية.

كانـت الرابطة الإفريقية بالزمالك رمزا مصريا للتحرر الوطنى، سـواء من داخل المبنى أو بتعـاون إداراتهـا مـع ممثلى التحرر الوطنـى الإفريقى الذى امتـد إلى تمثيل الصومال وزنجبار وإريتريا وتشـاد والسـنغال ثم الكونغـو، بما وصل إلى منتصف السـبعينيات إلى حـوالى ٢٥ حركة تحرير شـهدت القاهـرة تمثيلها، وتفاعلها مع شـعوبها عبر الإذاعات والطلاب من جهة (بيت شرق إفريقيا بمنشية البكرى)، وتفاعلها مع العالم عبر الاتصالات بالدبلوماسيين والهيئات الدولية من جهة أخرى. وكانت ثورة «الماوماو» لفترة وثورة الجزائر لفـترة أخـرى والثورة فى الكونغو وأزمتها بقيادة لومومبا لفترة من السـتينيات ثم مواجهة الاسـتعمار الاستيطانى فى جنوب إفريقيا وروديسـيا وناميبيا لفترة رابعة هى أهم أحداث الستينيات، ولم تخبو مع انتكاسه ١٩٦٧م بقدر ما ظلت عقب ذلك وحتى السبعينيات بدعم

ثورة الكفاح المسلح فى المستعمرات البرتغالية بقيادة كابرال (غينيا بيساو) ونيتو (أنجولا) وموندلانى (موزمبيق).

– وثمة محطة أخرى يتوقف عندها المراقب للعمل الإفريقى. قد تختلف نوعيا فى عملية التحرر الوطنى وهى قيام منظمة الوحدة الإفريقية ١٩٦٣م. وثمة دراسة أخرى ضرورية لأبعاد هذا الحدث لكننا لابد أن نسجل عنه. ارتباطه بفتور العمل الشعبى من جهة (توقف مؤتمرات الشعوب الإفريقية) وظهور محاور التنافس بين دول التحرر الوطنى من جهة أخرى (غانا – الجزائر – مصر – تنزانيا..) ولكنه شهد أيضا قوة حضور وتأثير مجموعة التحرر المنافسة هذه وسط الأغلبية المحافظة (بدأت بثلاث وثلاثين دولة فى منظمة الوحدة الإفريقية ١٩٦٣م) بل وحضور مادى ثورى بتبنى لجنة تحرير المستعمرات فى دار السلام ومدها بالسلاح للعمل المسلح وخاصة فى المستعمرات البرتغالية. وهو ما التزمت بدعمه ثورة يوليو والجزائر مع تنزانيا على نطاق واسع.

– أدت هذه التفاعلات الساخنة مع قضايا القارة إلى أن يلهث «العمل الإفريقى وآلياته» فى مصر للاستجابة لهذه التفاعلات. ولم يكن غياب الثقافة السياسية الواسعة الخاصة بهذا المجال. أو ضعف العمل الشعبى المنظم. كما لم تكن نكسة ١٩٦٧م نفسها بعوامل كف لهذه الانطلاقة. وفى تقديرى أن «مؤسسة العمل» حول هذه القضايا برغم مركزية القيادة تركت بصمتها واضحة على تاريخه... وألفت النظر هنا إلى أن تعدد «مراكز القوى» بين هذه الآليات. بل وتنافسها وحتى صراعاتها أحيانا كان مصدر «غنى» وليس مصدر إضعاف كما يتصور البعض. مثلما أن تعدد مراكز القوى فى الدولة يمكن أن يكون مصدر تعبير ديمقراطى وليس مصدرا دائما للفساد!

– ٤ –

لو اخترنا فترة ١٩٥٨م/ ١٩٦٠م وأحداثها منطلقا للتعرف إلى المعالم المؤسسية للعمل الإفريقى فى مصر إزاء تبلور بعضها بشكل بارز نسبيا فسوف نجد الآتى:

١ – تبلور عمل مكتب الشئون الإفريقية برئاسة الجمهورية عام ١٩٦٠م بناء على وضوح تخصيص محمد فايق لهذا العمل. وبصلة مباشرة بجمال عبد الناصر الذى أبدى اهتمامه الخاص بدوره بهذا المجال. برغم القرار السابق بمسئولية زكريا محيى الدين وفق

قـرار ١٩٥٦م. وقد أصبح محمد فايق مركز الاتصال الرئيسـى فى كافة مجالات الشـئون الإفريقية تعاونه الأقسام المعنية بمجلس الدفاع الوطنى، برغم نفوذ المخابرات العامة عليها، كما تخدمـه صلة المكتب والمجلس بالرابطة الإفريقية. ولابد أن نلاحظ هنا إننا لا نتعرض لدور وزارة الخارجية والذى خفت فى هذا المجال إلى حد كبير بعد تركيز العمل الإفريقى فى الرئاسة بقيادة محمد فايق ومعاونيه.

٢ – اعتمـاد مبدأ تمثيل حركات التحرير الإفريقيـة فى مقر الرابطة الإفريقية وحولها بالزمالك بحيث كان يقبل تمثيل أكثر من حركة واحدة من البلد الواحد، وكان بعض أعضاء مكتب الحركة يمثلونها أيضا فى سكرتارية التضامن الإفريقى الآسيوى. وقد بلغ عدد هذه الحركات الممثلة خلال السـتينيات حوالى ٢٥ حركة تحرير وطنية إفريقية من ثمانية عشر بلدا إفريقيا خلافا لحكومة الجزائر المؤقتة (فى المنفى قبل التحرير).

٣ – كانت كثافة هذا التمثيل قائمة فى إطار الرابطة الإفريقية نفسها وهى التى كانت الجمعية الأهلية التى حملت نفس الاسـم منذ أسسـها محمد عبد العزيز إسحاق ومجموعة من الأسـاتذة والصحفيـين والباحثين المصريين منذ أوائـل ١٩٥٦م وبعد عودة بعضهم من السـودان. وهى التى أسسـت بالفعل العمل الإفريقى الشـعبى والثقافى فى مصر فى تلك الفترة حيث غاب ذلك كثيرا عن القطاعات ذات الصلة الأصلية به. وضمت الرابطة نشاطا طلابيا واسـعا من أبناء الشـعوب الإفريقية الذين كان معظمهم يدرس بالأزهر بأعداد كبيرة وخاصة من الصومال وتشاد ونيجيريا والسنغال وإريتريا وموريتانيا فضلا عن السودان شماله وجنوبه وأبناء الشـمال الإفريقى العربى الذين وصل عددهم فى القاهرة فى تلك الفترة أكثر من عشـرين ألف طالب يـدرس معظمهم بالمجان ويتقاضى عدد منهم منحا دراسـية (فى حدود عشرة جنيهات..).

٤ – فـى إطار الرابطة الإفريقية أيضا صدرت مجلـة «نهضة إفريقية» فى عام ١٩٥٨م وبقيت تعبيرا قويا عن الحضور الإفريقى فى مصر لمدة عقد من الزمان على الأقل بعون من وزارة الإرشـاد القومى (الثقافة والإعلام فيما بعد). وفى هذا الإطار نشـط الجانب السياسى الوطنـى، مـع الطلابى، مع الثقافى بما جعل الرابطة الإفريقية تبدو كيانا إفريقيا فى رأى البعض لكن هؤلاء أيضا لاحظوا أن ذلك لم يرتبط بثقافة سياسية عامة فى المجتمع مبلورة هذا الترابط الذى عبرت عنه منطقة الزمالك!. وقد كان لى شـرف الانضمام لهذه «الرابطة»

منـذ أوائل ١٩٥٦م، مما ربطنى بقيادات حركات التحرير، وقيادات الطلاب الأفارقة فى مصر، حيث عملت كمنسـق لمكاتب حركات التحرير فى علاقتها «بأجهزة الحكومة» من جهـة بل وأشـرفت فترة على «بيت شـرق إفريقيا» الذى ضم الطـلاب الموفدين على منح دراسـية من هـذه المنطقة لمدة عامين تقريبـا ١٩٥٨م - ١٩٦٠م حـين تم إلحاقى بجهاز الرئاسة ١٩٦٠م مع الاستمرار فى هذا العمل التحريرى والثقافى فى الرابطة الإفريقية بصفتى الرسمية لمدة عقد ونصف من الزمان، ومن خارج السلطة لعقد آخر.

٥ - ومثلما خفت دور وزارة الخارجية لفترة من الخمسـينيات والسـتينيات، اختفى دور مؤسسـات شـعبية كان يمكن أن تعطى البعد الإفريقى مكانة أكبر فى الثقافة السياسة المصريـة. ولا شـك أن اختفـاء أدوار بحجـم الراحل فؤاد جلال لموقعـه فى مجلس الأمة أو الاتحاد القومى وبعض من التفوا حوله من الشخصيات العامة (عبده سلام...) كان تعبيرا أكيدا عن ضعف دور هذه المؤسسـات فى القرار السياسـى والثقافة الشـعبية بشكل واضح (سـواء فـى مصر وفى دول التحرر الوطنى المماثلة.. غانـا..) حيث لم نلحظ أى تطور فى دور التنظيمات السياسـية فى هذا المجال إلا لماما بينما كانت تنمو عملية التثقيف الموجه عموما وخاصة فى الاتحاد الاشـتراكى ومنظمة الشـباب طوال أعوام النهوض الإفريقى فى السـتينيات. ولا يمكن التحفظ على هذا الحكم إلا بإبراز دور «الاتحاد العام للعمال» بقيادة الراحل أحمد فهيم. والذى دفعه ليس قوة وضعه فى القرار السياسى بمصر بقدر قوة علاقته باتحادات إفريقية وقيادات عمالية ذات وزن فى سياسـة بلادها مثل «تيتجا» (فى غانا)، وصديق (فى المغرب)، والشـفيع أحمد الشـيخ فى السودان. وتوم مبويا فى كينيا، وكاواوا فى تنزانيا.. إلخ.

٦ - وفى غياب التنظيم السياسى المسئول عن الصلة بحركات التحرر الإفريقية والتطور السياسـى فى القارة ظلت علاقة هذه الحركات بمجموعة شـخصيات فعالة فى المجتمع مثلما قلنا عن فؤاد جلال وأحمد فهيم كما نشطت بأشكال مختلفة فى إطار منظمة التضامن حيث برز اسم يوسف السباعى بدوره.

٧ - عبر العمل على المسـتوى الإسـلامى والمسـيحى عما أسميناه ببراجماتية يوليو، وتمثل ذلك فى التعبيرات الثقافية التى بلغت حد السـذاجة والملل عن دور الأزهر ومكانته فى إفريقيا. أو رسالة نشر الإسلام والعروبة فى إفريقيا كمهام تاريخية «لمصر» وليس ليوليو

نفسها وهذا ما أدى إلى استياء زعماء الاستقلال الجدد من هذا الوضع وتحفظ بعضهم عند عبد الناصر. كذلك الحال عند الإشارة لعلاقة الكنيسة المتميزة مع الكنيسة «الحبشية» فى إثيوبيا، والتى أدى تزايد الحديث عنها بهذا الشكل أيضا إلى قرار الإمبراطور هيلا سلاسى بقطع هذه العلاقة وإعلان استقلال الكنيسة الإثيوبية فى منتصف الستينيات.

أشير هنا لهذا الوضع تعبيرا عن التوجهات البراجماتية، استمرارا لما قلته عن أن يوليو لم تقصد «تصدير الثورة» أو فكرها الثورى، بقدر ما كانت تريد استثمار هذه القوى الدينية المخلصة لها نتيجة العلاقة بالأزهر، والرغبة الملحة لمواجهة الاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى أو النفوذ الأمريكى. ولذا كان ثمة تقدير خاص ومتبادل من قبل عبد الناصر مع «سيردونا سوكوتو» فى نيجيريا وقيادتها الدينية الإقطاعية المعروفة بمحافظتها وتقليديتها الشديدة داخليا. ولكن عبد الناصر كان يريد دعمها ضد الإنجليز بعد ١٩٥٦م. كذلك الحال مع التيجانية فى السنغال وغرب إفريقيا عموما. كما كان الحال كذلك تجاه الجاليات العربية ومسلمى شرق إفريقيا (حالة زنجبار). وقد قفزت شخصية من العسكريين المحيطين بالرئاسة مثل الصاغ توفيق عويضة على المسألة الإسلامية مع إنشاء المجلس الأعلى الإسلامى الذى بدا متحكما فى دور الأزهر والطلبة الوافدين للدراسة فيه، وأدى ذلك لتحكمه فى مدينة البعوث الإسلامية وترويج المصحف المرتل بين القيادات الدينية المسيسة فى آسيا وإفريقيا دون أى توجه خاص بثورة يوليو أو حتى تحت شعار «محاربة الاستعمار»، وإنما كان ترويجا لاسم مصر فى العالم الثالث، والذى ساد فعلا بمختلف الشعارات، ولم يكن الأزهريون فى البلاد الإفريقية – وحتى فى تجربة الجزائر بعد استقلالها – إلا عناصر محافظة، وكامنة فى أحضان القوى المحافظة فى هذا البلد أو ذاك بما كان موضع شكوى «القوى التقدمية» أو التحريرية حسب تعبيرات ذلك العصر!

وللإنصاف فقد كان هناك فى هذا الإطار قطاع آخر شهير هو قطاع «الوافدين» فى وزارة التعليم (العام مرة والعالى مرات)! وكان اسم الصاغ عبد العزيز ياسين ذا معنى فى هذا الموقع بدوره لمعالجة مشاكل الوافدين والمنح الدراسية فى القطاع «المدنى» هذا الذى تطور من عدد محدود فى المدارس العامة والجامعات – نتيجة غلبة الأزهريين لفترة – حتى بلغ بضعة آلاف فى المدارس العامة والجامعات، بعد انتباه القيادة والشؤون الإفريقية لطلبات الدول الإفريقية من المتعلمين تعليما حديثا حيث الجدوى أكثر من التعليم الدينى، كما أنه

لا ينكر وضع اللغة العربية المأزوم مع الاستقلال بلغة رسمية هى الإنجليزية أو الفرنسية. وبلغت استجابة عبد الناصر وحساسيته لهذه المشكلة إلى حد التوجيه بإنشاء «معهد فنى عالى» يضم مختلف مجالات التعليم الفنى ويعلم بالإنجليزية. كما وجه بزيادة المنح الدراسية «للأفارقة» فى كليات تدرس بالإنجليزية (الطب - الهندسة) وإدخال التعليم لهم بهذه اللغات فى كليات الزراعة والعلوم السياسية. وذلك مساعدة للدول الإفريقية حديثة الاستقلال فى عملية التنمية الحديثة.

٨ - يقترن بالحديث عن مجال التعليم، حديث ضرورى عن مجال البحث العلمى والصحافة والإعلام كأداة من أدوات تنمية اهتمام المجتمع وربطه بالقضايا الإفريقية التى تحظى لدى قيادة الدولة بهذا الاهتمام البارز. والحق أن ذلك لم يتحقق بشكل مناسب فى فترة الستينيات كما كان متوقعا، ذلك أن معهد الدراسات الإفريقية الذى ورد اسمه كحلم من أحلام «قائد الثورة» فى أول تعبير مكتوب له عن «فلسفة الثورة». بل ودون أن تذكر بين أحلامه مؤسسة أخرى بهذا التخصيص. هذا المعهد الذى تحول من الدراسات السودانية إلى الإفريقية عام ١٩٥٨م، لم يتطور استجابة لهذه التسمية بالشكل الذى توقعناه جميعا طوال الستينيات. بل وإلى وقت قريب فى التسعينيات. بقى تحت تأثير ونفوذ المدرسة الجغرافية. والتاريخية. فى أحسن الأحوال أو مدرسة الأنثروبولوجيا الكولونيالية. فلم يقدم للدولة الثائرة الحديثة تراثا يذكر إلا منذ عهد قريب. وبقيت الكتابات البحثية الأكثر تسييسا خارج هذا المعهد المهم سواء فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بقيادة د. عبد الملك عودة. أو من قبل بعض الصحفيين فى مؤسسات الأهرام والجمهورية. ومع قيام مصلحة الاستعلامات بجهد فى ترجمة بعض الكتب «الأوربية» عن إفريقيا. إلا إنها كانت تعتمد تلخيصات الكتب أكثر من النصوص الأصلية. كما لم تحرص على كتب ذات توجه مناسب. فضلا عن توزيعها المحدود فى الدوائر المسئولة لأغلب مطبوعاتها.

كانت سيطرة «النزعة الإعلامية» عن الدور المصرى. والمبالغات الصحفية المتصاعدة. سلبا على المكون الثقافى فى مصر لمعرفة إفريقيا معرفة حقيقية. ومع غياب دور التنظيم الشعبى نفسه ومؤسساته فى عملية التثقيف. ظلت «مواقف الزعيم وخطبه» هى مصدر الإحساس الأساسى بمصر الإفريقية. وذلك فى المناسبات الوطنية العامة وليس فى التكوين القومى للمواطن.

٩ – مثـل «الفعـل الاقتصادى» دورا هاما فى علاقات مصـر الإفريقية، لم يجد تقديره جيدا. وكانت الحملة الدائمة على «شركة النصر للاستيراد والتصدير» مصدرا للحد من أثر هذا الفعل، مع أنها المؤسسة التى ارتبطت بمعنى دور «قطاع الدولة» الاقتصادى أو «القطاع العـام» أو «رأسمالية الدولة» حسـب موقع الناطق بهذه المسـميات. وكانت فعالية «المقدم محمد غانم» فى هذا القطاع لا تقل عن قيمة اسم المهندس «محمود يونس» فى قناة السويس أو «صدقى سليمان» فى السد العالى. وقد كان «لشركة النصر» أكثر من عشرين مكتبا تجاريا فى أنحاء القارة، كما ارتبطت بتجارة واسـعة مع نيجيريا وساحل العاج فى غرب إفريقيا إلى زامبيا وكينيا فى شـرقها. لم يبق منهم الآن إلا ما يشـبه «الدكاكين» للتجارة الخاصة هنا وهناك.

وقد ارتبط «بمشـروع شـركة النصر» وجود أساس لأسـطول تجارى يدور حول القارة، ومشـروعات استثمار فى مبانى بسـاحل العاج ومالى، وأعمال الإنشاءات فى نيجيريا بعد حـرب بيافـرا، أو فى التجارة التبادلية من النحاس والدخان فى زامبيا وغيرها. كان نفوذ مصر الاقتصادى هو المهدد للمسـاعدات الإسـرائيلية، أو احتياطى الاستقلال السياسى فى بـلاد مثـل غينيا والصومال. وقد وفـرت حرية الحركة لرجل مثـل «محمد غانم» صلات وثيقة بالسياسـيين ورجالات الدولة ربما كانت سـبب نشـاط دوائر معادية لنشاط الشركة ضد سمعتها فى هذا الإطار، لأن ما ارتبط بهذه الإسـاءات من سمعة تدخلات عبد الناصر الانقلابيـة، لم يكـن واقعيا، إزاء موقفنا الـذى صار معتدلا إلى حد كبـير لحماية منظمة الوحدة الإفريقية والعمل فى إطارها. ولذا لم يبق مجال للتدخل فى بلاد مستقلة إلا ما كان معروفـا عـن صلتنا بمعارضة النظام فى الكاميرون، وشـائعات الإعلام الفرنسـى والمصالح الفرنسـية عن نشاط عبد الناصر المضاد لفرنسا فى «مستعمراتها» بسبب الموقف المصرى مع الثورة الجزائرية.

١٠ – كان ثمة آلية أخرى غير الفعل الاقتصادى، مساوقة للعمل السياسى والاقتصادى على السـواء، وهى «العمل الدبلوماسى» والعسـكرى فى آن عبر منظمة الوحدة الإفريقية! وقد كان المؤتمر الأول لهذه المنظمة بالقاهرة يوليو ١٩٦٤م (بعد المؤتمر التأسيسى فى أديس أبابا ١٩٦٣م) ذا أهمية بالغة ودلالة على تأثير القيادة المصرية فى العمل الإفريقى الشامل. ففى هذا المؤتمر ومن قبله فى أديس أبابا اسـتطاع عبد الناصر أن يكون الشـخصية الموازنة

لمسألة الوحدة الإفريقية تحت اسم «الدول الإفريقية المتحدة» التى سعى لها نكروما وتحداها نيريرى وهيلا سلاسى والفرانكفونيون. واتفق فى النهاية على اسم وطابع منظمة الوحدة الإفريقية. كما شهد مؤتمر القاهرة مشكلة الحدود. وكانت مستغلة ضد نكروما نفسه مع التوجو وغيرها وضد الصومال بالطبع، ناهيك عن الجزائر والمغرب، ومصر والسودان.. إلخ. وفى مؤتمر القاهرة تم التوازن بين كافة الأطراف ليستقر نص التسليم بالحدود الاستعمارية الموروثة لحظة الاستقلال.. لتتوقف صراعات الحدود المدمرة فى القارة حتى الآن، برغم غضبة الصوماليين التى أوقفها تقديسهم لعبد الناصر شخصيا. أما القضية الثالثة المهمة، فهى إقرار القمة الإفريقية لدور «لجنة تحرير المستعمرات» فى تدريب كوادر حركات التحرر من معسكرات لها فى دار السلام بتنزانيا. وبدا العمل العسكرى ضد دولة مثل البرتغال ونظام عنصرى فى جنوب إفريقيا «شرعيا» من داخل منظمة الوحدة الإفريقية وحتى أقرته الأمم المتحدة عام ١٩٧٢م فى جينيف. وكان السلاح المصرى والمدربون المصريون يتحركون فى دار السلام بحرية مساعدة لحركات التحرير على أرض دولة إفريقية بمساعد مصرى لرئيسها هو الدكتور محمد سامى.

— ٥ —

ماذا يبقى من هذه الفترة؟! التاريخ لا يتوقف، ولا يتكرر بالطبع، ولذا يمكن دائما إلقاء بعض الملاحظات أو الاستنتاجات الختامية، ولو بعناوينها فقط، لأنى لا أقدم هنا دراسة وإنما قدمت معايشة أو شهادة تصلح للتأمل والبحث. كما أنى أتصور أن أخبارا كثيرة لابد خضبت آلاف الصفحات عن تفاصيل هذه الفترة، لذلك فليدعنى القارئ أدفع به إلى بعض هذه العناوين التى يتوجب عليه البحث فيها، ليعرف كيف تفاعلت هذه الظواهر والآليات فى بناء صورة مصر فى تلك الفترة.

– لابد أن القارئ قد بنى صورة «لدبلوماسية الزعامة» التى حركت أجهزة الدولة. قد تبدو مثالية عند البعض. لكنها تؤكد المعنى الشامل للهيمنة المعنوية والفكرية تعبيرا عن مشروع طموح يغرى بالمثالية، وقد قفز مشروع الدولة الوطنية الجديد فى أقل من عقدين ليجعل من «مستعمرة مصر» ذات صورة مهيمنة على مستوى قارات ثلاث تغلى بالأحداث.

لكن لابد للباحث أن يكتشف كيف تؤدى «دبلوماسية الزعامة»، إلى نقص الشفافية –

ما دمنا نتحدث عن الآليات -، وما يتطلبه ذلك من بحث فى الوعى الجماعى الذى كان سائدا وأثره فى توجيه الإدارة ومختلف الأجهزة. وقد أثر التناقل الشفاهى للتوجيهات بالضرورة إلى افتقادنا لكثير من الوثائق الآن.. خاصة مع افتقاد الروح المحركة بنفس القدر. ذلك أن دبلوماسية الزعامة - تجاه إفريقيا على الأقل - تحركت من نبع الأحداث الكبرى.

«والدور» وليس من مجرد ضخامة وضع الزعيم أو حاكميته. هنا كان أثر باندونج ١٩٥٥م، ومؤتمر الشعوب الإفريقية الآسيوية ١٩٥٨م - ومؤتمر ومجموعة الدار البيضاء ١٩٦٠م وأحداث الكونغو ٦٠ - ١٩٦٤م، وقيام منظمة الوحدة الإفريقية، ثم أحداث بيافرا...

- أظن أن موضوع الموقف من إسرائيل كان نموذجا لأثر «هيمنة الزعامة الناصرية» فى الحالة الجماعية الإفريقية، بأكثر مما كان أثرا لسلوك البيروقراطية المصرية أو حتى جهد الدبلوماسيين. ومعظمهم - فى تلك الفترة - من أهل الثقة بأكثر من كونهم من ذوى الخبرة.. كانت قرارات «اعتبار إسرائيل رأس جسر للاستعمار»، «وأداة الاستعمار الجديد» عام ١٩٦١م على مستوى مؤتمرات للحكومات والشعوب فى عام واحد أكبر من أن يكون نتاج جهد دبلوماسى أو ثقل لمنظمات شعبية، لكنها فى نفس الوقت كانت بالتأكيد نتاج ثقل.. مصر الجديدة، ذات أقل من عقد من التحركات الثقيلة...

- كذلك كان الحال فى التصدى للسياسات الغربية، وهى تتصارع حول نفسها مع الزحف الأمريكى بعد الحرب الثانية، وبنفس الأهمية كان التوازن الذى تم فى حرب الصراع الصينى السوفيتى. وأشهد أننا - وكنت متابعا لحركة التحرر الوطنى وممثليها - تعاملنا مع هذا الصراع - بكل ثقله. بل وصغائره أحيانا - ليكون دعما لحركة التحرر الوطنى، حيث كان يمكن أن يكون معطلا، وكان ذلك صارخا فى حالات أنجولا وموزمبيق والكونغو وزيمبابوى، بما لا تتحمل هذه المساحة تفاصيله. لذا أرجو من القارئ ألا يظن أنى أغفلتها. لم ننس أيضا مسألة التعاون العربى على المستوى الإفريقى إلا إن المسألة كانت تتعلق بالأدوار المصرية المباشرة ودور الزعامة كما قلنا رئيسيا أكثر من قيامها على أجهزة. كان المشرق العربى غافلا عن تراثه مع شرقى إفريقيا، أو الجاليات العربية فى غربى القارة، وكان الخليج العربى خاوى الوفاض، أما عرب شمال القارة. فكانت حركتهم بين صراعات المغرب الثنائية مع الجزائر. أو بناء الأخيرة لصورتها الباحثة عن الاختلاف مع صورة القاهرة.. ومن زاوية مفهوم «العالم ثالثية» أكثر منه العمل العربى الإفريقى..

– وفى الختام، سيظل القارئ يسأل عن وثائق هذه المرحلة، وليس عندى إلا الدعاء بأن يسامح الله الرئيس السادات وإدارته، فقد أدت هيمنة الزعامة الجديدة إلى إلغاء المكاتب المتخصصة برئاسة الجمهورية لأنه «مش عاوز دوشة دماغ» حسب ما تناقله كثيرون. وباستبعاد هذه «الدوشة»، ألقى بوثائق مثل هذه المكاتب إلى مصائر لا نعرفها.. لكن التاريخ لا يمكن نفيه بسهولة. فالمخربون والاستعماريون وحدهم أغرقوا مكتبات. وأحرقوا وثائق بحيث لم يظهر لها أثر.. لكن مصر لم تصل لهذه الحالة. ولابد من أن يتواصل التاريخ.

□□□